● الفصل الثانى

الناحية العلمية والأدبية

التمهيد: عصر الإثمار باسم حرية التفكير فى العلوم والفنون.

العلوم العقلية فى هذا العصر: الفلسفة وابن سينا والغزالى.. الفقه ومشاهير الفقهاء.. علم الكلام وأعلامه.. التنجيم والفلك والرياضيات، ثم الطب وظواهرها فى مجتمع القرن الخامس.

العلوم النقلية وميزتها فى هذا العصر: القرآن والحديث.. التاريخ.. البلاغة والنحو.. الأدب وخصائصه.. ذوو اللسانين، مانسب إلى «النظام» من شعر.

تمهيـــد :

لقد كان الدين ـ كما انتهينا من قبل ـ هو الهدف للدولة فى تلكم القرون الأربعة، باسمه تغزو وتفتح فى الخارج، ومن أجله تقضى على المارقين والخارجين على الحكم فى الداخل، دون تفريق بين الدين والدولة، أو تمييز بين السياسة والعقيدة.. إلى أن تبلورت فكرة السيادة الدنيوية ونضجت نظم الحكم فصار الدين والدولة توأمين يسيران جنبًا إلى جنب.. وليسا شيئًا واحدًا فهما توأمان يجب أن يعيشا معًا، وأن يتعاونا لإسعاد الرعيّة، وأن تجعل الحكومة من الأول عمادًا لها ليكون فلسفتها فى الحكم ولتنظيم شئون الناس وضمان مصالحهم، وعلى الحاكم أن يتعهدهما بالرعاية والعناية على السواء من أجل بقائهما وخير المجتمع الذى يحلاّن فيه.

ومادام الدين من الدولة بمنزلة التوأم، وهو الذى يرشد الفرد إلى واجباته نحوها ونحو نفسه وخالقه.. فلابدّ من دراسة أحكامه وأصوله ولابدّ له من تعلم فروعه وما يمهّد لها من علوم وفنون، فى اللغة والنحو والبلاغة، فقد ورث هذا القرن علومًا لسانية وأخرى عقلية كانت جميعها فى خدمة الدين وإيضاح فروعه وأصوله، بحيث تحوّل بعضها إلى معتقدات كأنها جزء من الدين أو أحد مظاهره.

وبينما كانت الحرب سجالاً عبر الحدود من أجل نشر الدين كانت فى

الداخل نهضة فكرية تعنف حينا وتخف أحيانًا تظهر تارة باسم الدين.. وأخرى باسم العلم، وإن شئت فسمّها علمية دينية أو دينية علمية أو ثورة الفكر العالم المتدين. ولقد تحدثنا آنفًا عن مظاهر هذه الثورة باسم الدين، والآن سننتقل إلى الحديث بإيجاز عن ثورة العقل العالم باسم حرية التفكير جاهدين تلمس الخطوط البارزة التى تمثّلت فى هذه الفترة من عصر الإثمار.. عصر الوزير «النظام».. إذ لم يكن العصر الذى عاش فيه وزيرنا ـ كما يخيل إلينا ـ عصر تجديد فى الاجتماع والعلم والسياسة ـ وإنما كان عصر جَنْى واستثمار.

ومما يكشف لنا عن تخطى الفكر دور النضج إلى عهد الإثمار فى هذا العصر تلك المكتبة الضخمة فى العلوم والفنون والآداب، والتى حوت من مؤلفات القوم ودواوين الشعر عددًا هائلا، وقد جمع بين تركيز الفكرة وعمق النظرة، وغزارة المعلومات كما سنشير لأسماء أهمها فى ثنايا هذا الفصل.

ولم تكن الفترة التى عاشها «النظام» هادئة مستقرة لينصرف بكليته لإحياء المعارف الإنسانية وتعميمها.. كما لم يكن سلاطينه.. وهم «من الأتراك الذين عرفوا بجنايتهم على العلم[1]» فى تلك العهود لانصرافهم للحروب، مما يساعد على مضاعفة نشاط الوزير لتحقيق ما يرمى إليه من نشره، ولكنه على الرغم من كل ذلك فقد بذل قصارى جهده فى سبيل تحقيق هدفه، وربما كان لسياسة الحكم الفاطمى التى بنت منافستها على العلم أثر كبير فى مواصلة جهود «النظام» لتعزيز الدعوة العلمية التى كانت تعضد المذهب السنّى.. مذهب الدولة فى الشرق ضد التشيع الباطنى ـ مذهب الحكومة الفاطمية فى مصر، وذلك بإنشائه المدارس النظامية قبال الأزهر الشريف.

والحق أن هذا العهد وبخاصة الفترة التى كان «النظام» وزيرًا فيها ـ من نوادر العهود التى حفلت بأنواع العلوم وزخرت بجهابذة العلماء، والتى لم يشهد لها التاريخ الإسلامى نظيرًا فيما بعد.. وربما كانت خاتمته، فبعد أن امتدت ساحة

---

(١) المختار السائغ من شعر ابن الصائغ ص ١١.

الدولة الإسلامية وتباعدت أطرافها أخذت الأمم المختلفة بلغاتها ومعارفها وحضاراتها الموروثة تحترب فيما بينها وتصارع الحضارة العربية الجديدة. . وكان أن خرجت اللغة الأم العريقة ظافرة منتصرة وظلّلت بأجنحتها تلك الرقعة الواسعة من المحيط الهندى إلى المحيط الأطلنطى. . غير أنها سرعان ما خبت جذوتها وتضاءلت شعلتها بعد قرنين من وفاة «النظام» على أثر فتح المغول لهذه البلاد.

وقد تجلى نشاط «النظام» فى هذه الناحية العلمية والتى تليها ـ السياسية ـ أكثر مما سبق من النواحى الاجتماعية الأخرى. . بحيث كشفت لنا عن قوة شخصيته وصدق نواياه وسلامة أهدافه فى العلم والسياسة. . فلم يكد يتسلم منصب الوزارة حتى شرع فى تأسيس «نظامياته» وبثّها فى حواضر العالم الإسلامى. . وهيّأ لرواد العلم ما يحتاجون إليه من زادٍ ومواد. . وقرّب إليه العلماء وشجّعهم على مواصلة البحث والتدريس وأغدق عليهم الأرزاق لاعتقاده بأن العلم قوام الدين كما أن الدين عماد الدولة وأن العدل أساس الملك. . ومادام يريد لأمته دولة عادلة فلابد له من نشر العلم كما عمّ الدين. . ولابد له من أن يمهد لذلك بإنشاء المدارس وغيرها كما مهّد لهذا بإعداد الجيش.

وعند تصنيف ـ العلماء ـ لتلك العلوم قسّموها إلى مجموعتين: عقلية ونقلية. وكانت الفلسفة ـ كما يبدو لنا ـ هى جماع الصنفين وثمرة القسمين، لأن مادتها العلوم جميعًا وغايتها الاهتداء إلى كشف قواعد عامة واستنتاج أحكام شاملة فى الحياة والكائنات وما وراء الطبيعة.

من العلوم العقلية:

١- الفلسفة:

وافتنّ العلماء فى هذه الحقبة من التاريخ بالفلسفة ولاسيما فلسفة اليونان وشغف آخرون بعلوم الدين وتحمسوا له وبخاصة عقيدة الأشعرى

على 'مذهب الشافعى واختلطت لديهم مشكلات الفلسفة بمعضلات الدين.. أو أنهم شاءوا ذلك فصار بنظرهم من يقول بخلق القرآن وأن الإنسان قادر على أفعاله يعتقد اعتقاد الفلاسفة وبذلك يتهم أصحاب «عبد الصمد» من الحنابلة أهل النقل «أبا على بن الوليد» من المعتزلة أهل الرأى والعقل فيهجمون عليه وعلى داره وتقوم الفتنة عام ٤٥٦هـ[١]. . وقام فريق من هؤلاء يرفع شأن الفلسفة على حساب الشريعة وأخذ فريق من أولئك يدعو لدراسة الفلسفة ـ أى الحكمة والمنطق واستعمالهما أداة ضد خصومهم كالغزالى، ولعلّ هذا مما دعاه إلى تأليف كتابه ـ التهافت ـ ودعا فريق آخر للتوفيق بين الشريعة والفلسفة لاعتقادهم بأن الغرض منهما واحد[٢] وهو خدمة الدين.

وبذلك كان الدين هو الحافز الأول وله الفضل الأكبر فى نشاط هذه الحركة خلال القرون الأربعة السابقة حتى نهاية القرن الخامس الهجرى، وبذلك ليس من صائب الرأى من يعلّل لتلك الحركة بالسياسة وحدها كما ليس من صحيح القول الزعم بأن الفلسفة فى هذا العصر إنما هى استمرار وتكرار لفلسفة العصور السابقة، وأن الغزالى فى تآليفه ولا سيما فى تهافته.. إنما كان يعمل لنقض الفلسفة ولغرض الدفاع عن الدين فقط. وبذلك فقد أتت الفلسفة ثمارها فى هذا العصر بعد أن نُقلت عن اليونان وتتلمذت على أساتذتها، فغدت فلسفة إسلامية مستقلة الفكر واضحة المعالم بيّنة التعاريف والحدود، عميقة الحجة مدعّمة الآراء بالبرهان.

ابن سينا :

وآية ذلك.. ابن سينا أبو على الحسن بن عبد الله المتوفى سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م.. طليعة الفلاسفة الصوفية فى مطلع القرن الخامس الهجرى

---

(١) سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ ورقة ٥٨.

(٢) ابن حزم ـ الفصل جـ ١ ص ٩٤.

الـذى بزّ أقرانه كأبى إسحاق الكندى والفـارابى والـرازى.. فى التفكيـر العظيم والتعبير الفلـسفى الرصين وإن كتابيه ـ القانون ـ فى الطب ـ والشفاء[1] ـ فى العلوم الفلسفية لتدلنا على ثراء ابن سينـا العـلمى وحصافـة رأيه.. ولاسيـما بمـا قدّمه لنـا مـن بحـوث عن الحواس الباطنيـة وعن النفـس.. وقصيدتـه فى النفـس لا تحتـاج شهرتها وذيوعهـا إلـى ذكـر فإنهـا على تضمنـها لمعـان فلـسفيـة قد بلغت الذروة فى أسلوبها الجميل وتصويرها الرائع.. ويعدّ ـ ول ديورانت ـ كتابىّ الشفاء والقانـون ـ أرقى مـا وصـل إليه التفكيـر الفلـسفى فـى العصـور الوسـطى ومـن أعظم البحوث فـى تاريـخ العقـل الإنسانى[2].

وإنـه كان فيلسوفًا لا يميـل إلى التقليد لأن العقل عماده ولذلك لم يتأثر بأقوال أبيه عن الإسماعيلية وبقى يشتغل بمسائل الفـقه والكـلام والفلسفـة، وكـان كلّما استعصت عليه مسـألة ذهـب إلـى الجامـع وصلـى وابتهـل إلـى اللّه ليفتح له المغلق ويسهّل العسير.. وكان كلما شعر بالضعف ـ كما حـدّث عن نفسه ـ أو النوم فى القراءة والكتابة تناول قدحًا من الشـراب ليصحـو وتعـود إليه قوته.

ولعل ابن سينا أول من حاول أن يوفق ليس بين الفلسفة اليونانية والعقيدة الإسلامية فحسب وإنما بينهما معًا والصوفية جميعًا[3].

ولإقبال علماء العصر على الفلـسفة وشغفهم بدراسة علومها وبلوغهم مرحلتها فقد شاعت فكرة التوفيق بينها وبين الشريعة حتى لا يبقى مجال لتكفير الآخذين بها بحيث بلغت بلاد المغرب فنرى ـ ابن حزم القرطبى (٣٨٤-٤٥٦هـ) حينما يصل بحديثه عن الفلسفة يقول: «وأمّا معناها وثمرتها

(١) نشر جزء من النص العربى لهذا الكتاب كما طبع ملخصه باسم «النجاة مع القانون فى روما» سنة ١٥٩٣م (مجلة المجمع العلمى فى بغداد).

(٢) قصة الحضارة جـ ١٢ ص ٢١١. الترجمة.

(٣) المنجّد ـ المنتقى ص ١٦٨.

والغرض المقصود بتعلمها ـ على الحقيقة ـ ليس شيئًا غير إصلاح النفس بأن تتكمل فى دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها فى المعاد وحسن السياسة للمنزل والرعيّة، وهذا نفسه لا غير هو الغرض فى الشريعة. هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة[١] إلاّ بنظر من جهل بأحدهما أو بهما معًا»[٢].

ثم جاء ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥هـ بعد ذلك وقام بمحاولة أخرى للتوفيق بينهما ولا نظن نصرًا رافق فيلسوفًا كالنصر الذى رافقه فى انتصاره للفلسفة، وإن كتابه ـ تهافت التهافت ـ فى الرد على تهافت الفلاسفة للإمام الغزالى، وكتابه ـ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ـ خير دليل على فوز العقل الحرّ والتفكير الفلسفى ممثلين فى شخصية هذا الفيلسوف العربى. إذ عن فيلسوف العرب ـ الكندى ـ أخذ ابن سينا والفارابى وغيرهما معنى الفلسفة[٣].

وقد كانت مؤلفات ابن سينا الفلسفية مطمح أنظار المتطلعين للدراسات العليا فلم تكد تخرج للوجود ويتسامع بها الناس حتى قرأها كثيرون وتأثروا بها، ومن هؤلاء ـ أبو العلاء المعرّى[٤] ـ شاعر عصر «النظام» وزميلاه «الخيّام والصبّاح»[٥] حيث اتفق الشاعران معه فى القول بالجبرية.

الغزالى:

أفاد ـ الغزالى ـ من كتب ابن سينا وهو يطريه ويثنى على فلسفته كما يشيد بالفارابى[٦] عند التحدث عنه، وكان كزميله هذا وكأستاذه ـ الجوينى ـ مجتهدًا

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ١ ص ٩٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الأهوانى: أحمد فؤاد ـ معانى الفلسفة ص ٤٢.
(٤) طه حسين ـ ذكرى أبى العلاء.
(٥) البيهقى ـ تتمة صوان الحكمة ص ١١٠.
(٦) الغزالى ـ تهافت الفلاسفة ص ٩.

لا يميل إلى التقليد، وأن خروجه إلى التصوّف بعد أن بذل جهدًا لمعرفة ما كتبه أصحاب الملل والنحل والمذاهب ويئس من إدراك المعرفة الصحيحة[1] من أدلة تحكيمه للعقل.

مهما قيل عن الغزالى وشطحاته الصوفية التى ضيّقت النطاق على عقله وحصرت عقول الآخرين فلا يستطيع باحث إلاّ أن يعدّه من أكابر فلاسفة هذا العصر، إذ إن نقده لبعض نظريات الفلسفة ونعيه على المتفلسفين إنما هو من الفلسفة وإن كتبه بأسلوبها وموضوعاتها، ومناهج العرب فيها إنما كانت من صميم فلسفة ذلك الوقت.

لقد عالج الغزالى فى مؤلفاته بعض المسائل التى مازالت موضع قبول وردّ حتى عصرنا الحاضر وكل ما كان يعترض عليه من مشكلات فلسفية إنما ينحصر فى نظريات قدامى الفلاسفة.. فى قدم العالم واعتقاد الدارسين فيها دون تمحيص ولا بحث، ولذلك ينحى باللائمة على الذين يحكمون بالظن والتخمين من غير تحقيق ولا يقين[2]، ولذلك هو يطرى الفارابى وابن سينا ويعدّهم من طبقة الفلاسفة المحققين[3].

والذى يؤخذ على الغزالى فى كتبه التى تربو على الخمسين مؤلفًا، وبخاصة ما كان منها فى الرد على الفلاسفة أنه كان قاسيًا فى نقده مقذعًا فى سبّه، ساخرًا بذَوى الرأى هازئًا بآرائهم. وهذه ليست من خلال الناقد المتجرد.. ولا هى من تقاليد النقد النزيه وهو العالم الفيلسوف المتصوّف..

ونحن إذ نستمع إليه يقول فى معرض حديثه عن الأنبياء: «إنه لم يذهب

(١) المنجد ـ المنتقى جـ ١ ص ١٥ (بروكلمان).

(٢) الغزالى ـ تهافت الفلاسفة ص٨.

(٣) المصدر السابق ص٩.

إلى إنكارهم إلاّ شرذمة يسيرة من ذوى العقول المنكوسة والآراء المعكوسة الذين لا يؤبه لهم ولا يعبأ بهم فيما بين النظار، ولا يعدون إلاّ فى زمرة الشياطين الأشرار.. وغمار الأغبياء والأغمار.. ليكفّ من غلوائه من يظن أن التجمل بالكفر يدل على حسن رأيه.. ويشعر بفطنته وذكائه.. إلخ[1]» فإنما يخيّل إلينا أن الناقد غير الغزالى.. وأن صاحب هذا القلم متحامل غضوب لا يرعى للعقل حرمة ولا يلحظ لآداب الجدل والمناقشة قاعدة.

ومع هذا فإنه كما يقول «بور Boer» أعمق من تضلّع فى دراسة الفلسفة الإسلامية من المستشرقين: «إن فى اتخاذ الغزالى تلك الطريقة المبتكرة من التصوف والاقتناع الداخلى أعمق ـ وأيم الحق ـ من فلسفة المقلّدين». ونحن نقول: إنه فلسف التصوّف حين سلك طريق التألّه وترك التدريس واتخذ بجوار بيته مدرسة وخانقاه إلى أن مات سنة ٥٠٥هـ[2]، وإنه قد حالفه التوفيق ـ كما نظن فى فلسفته بقدر ما خالفه فى عزلته وانطوائه، على أنه ما كان ليرضى من الصوفية ـ وهو الصوفى الحق ـ شطحاتهم وسفاسفهم[3]، كما لا يرضيه من الفلاسفة اعتمادهم على العقل وحده دون استقراء وتتبّع ولجوء إلى القلب بغية الوصول إلى الحق عن طريق الإلهام.

٢- الفقه:

والفقه وإن كان مختصًا فى الحقوق بتشاريع الدين ـ فإنما هو من الفلسفة وليس واحدًا من العلوم الموصّلة إليها لأنه إمّا اجتهاد فى مسألة، أو استنتاج لحكم، أو تحليل لقاعدة.. فهو إذًا فلسفة التشريع، لأن المدارس الفقهية ـ كما يقول

(١) المصدر السابق ص ٦ ، ٧.

(٢) ابن عساكر ـ التبيين ص ٣٩٩.

(٣) الفقرة ١٠٤ من رسالته «أيها الولد».

«رتر» المستشرق الألمانى: «والتفكير الدينى فى الإسلام يمثل الفلسفة العربية أكثر ما يمثلها جمهور الفلاسفة أتباع أرسطو كالفارابى وابن سينا وابن رشد وغيرهم».

وعهد الإثمار فى الفقه يتجلى بما ظهر فى هذه الفترة من فقهاء ثم ما قام به هؤلاء من مؤلفات وما بلغته هذه من التنظيم والتعليل، وإبداء وجهات النظر فى المشكلات الشرعية فى دقة لا نجد لها نظيرًا من قبل. وقد تجلّت هذه واضحة فى كتب الأئمة كالقشيرى والجوينى والغزالى. وبدت أكثر وضوحًا فى الآثار التى استخلصت من أحكام الشريعة فى نظم الإدارة والحكم، وواجبات الملوك بعد أن كانت داخلة فيها ممزوجة[1] بها وجعلت منها مدوّنة ذات موضوع خاص دعته بالأحكام السلطانية وآدابها.

وكان خير من يمثل عهد الإثمار فى هذا الباب الماوردى الشافعى المذهب المتوفى سنة ٤٥٠هـ فى كتابه «الأحكام السلطانية» وأبو يعلى محمد بن الحسن ابن الفراء الحنبلى المتوفى سنة ٤٥٨هـ، فقد عالج الموضوع كلّ منهما حسب وجهة نظر المذهب الذى ينتمى إليه معالجة بلغت من الدقة وحسن التبويب بحيث أصبحت مرجعًا قلّ أن نرى له مثيلاً حتى فى العصر الحديث.

وقد أعجب بهذه الظاهرة المستشرق الألمانى ـ شاخت ـ حتى وصفها بالنهضة العظيمة التى بلغها علم الفقه فى القرن الخامس للهجرة وقال عنها: «إنه لابد أن يكون ذلك التنسيق للفقه الذى نشاهد أكمل مظاهره عند المذاهب الثلاثة فى وقت واحد تقريبًا: للحنفية على يد القدورى، وللشافعية على يد الغزالى، وللمالكية على يد سعيد بن خليل»[2].

ومهما يكن من أمر ذلك فقد ظهر فى عهد «الوزير» عدد كبير من الفقهاء

(١) الماوردى ـ الأحكام السلطانية ص٢.

(٢) مجلة الشرق ـ المجلد ٢٣ ـ سنة ١٩٣٥م ـ ص ٥٤٧.

البارزين وظهر لهم من المصنفات فى الفقه عدد ضخم فى حجمه، عميقٌ فى مادته، وصارت بعد مرور وقت قصير ـ لكلٍّ واحد من أولئك الأعلام ـ مدرسة تكتظ بالتلاميذ وتزدحم بالأساتيذ.. يكتب فيها ما يملون ويدرس ما يكتبون.. ولم يلبث أن يشيع الكتاب فى مختلف الأوساط المتعلمة وتحتفظ الخزانات بنسخ منه للإعارة والنقل والتعليق والحواشى عليه.

وقد يكون للخلاف بين السنّة والشيعة أثر فى تقدم التشريع الإسلامى وكثرة المؤلفات فيه.. إذ كانت المنافسة بين أعلام الطائفتين على أشدها ولاسيما فى هذا العصر. وثمة سبب آخر ساعد على تقدم التشريع الإسلامى حتى بلغ مرحلة التفقه والفلسفة هو تضافر جهود العلماء من مختلف المذاهب لدراسة الشريعة وتنظيمها وتعليل أحكامها، إذ المعروف بأن الاعتزال والتشيع والأشعرية مذاهب تختلف فى التشريع مثلما هى فى العقائد والكلام. وكان الاجتهاد فى هذا العصر هو الصفة البارزة فى الفقه والأصول معًا حتى لتجده شرطًا أساسيًا فى تعيين المحتسب كما نص عليه (الماوردى) فى أحكامه[1]، وقسّمه إلى عرفى وشرعى وقال عن الأول: ما روعى فيه أصل ثبت حكمه بالعرف، والثانى: ما روعى فيه أصل ثبت حكمه بالشرع[2].

مشاهير الفقهاء:

وسواءٌ أكان هذا أو ذاك فالاجتهاد فى التشريع الإسلامى أمرٌ لاشك فيه والتجديد من صفات المجتهد التى لا تكون إلاّ بعد تبحرّه فى العلوم واستجماعه شرائط الإمامة من العربية والكلام والأصول ومعرفة الكتاب والسنّة[3] ـ كما يقول ـ أبو إسحاق الإسفراينى المتوفى سنة ٤١٨هـ. وأنه على الرغم من توافر هذه الشروط فى كثير من أعلام المسلمين ـ على اختلاف العصور ـ لم يستفد

(١) الماوردى ـ الأحكام السلطانية ص ٢٠٩.
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٣.
(٣) ابن عساكر ـ التنبيه، ص ٢٤٤.

منه، وبخاصة عند السنّة مثلما استفيد منه فى هذا العصر فالشيخ ـ أبو إسحاق الشيرازى - يخالف إمامه الأشعرى فى مسألة «إن الأمر لا صيغة له»[1].

وكان الشيرازى هذا من أبرز فقهاء هذا العصر وقد ظهر له من التآليف عددٌ كبير منها: «التنبيه والمهذب، واللمع».

والقاضى أبو المحاسن الروياني الطبرى المقتول سنة ٥٠١هـ، صنّف كتبًا كثيرة منها كتاب «التجربة» وكتاب «الشافى» وكتابًا آخر كبيرًا سمّاه «البحر». يقول ياقوت: «رأيت جماعة من فقهاء خراسان يفضّلونه على كل ما صنّف فى مذهب الشافعى، وكان (النظام) يكّرمه»[2].

وأبو سعد بن مأمون المتوفى سنة ٤٧٨هـ ألّف كتاب «التتمة» الذى تمّم به كتاب الإبانة لشيخه ـ أبى القاسم الفورانى ـ وكتبًا أخرى فى الفقه[3].

وكان «النظام» لايسمع بواحد من هؤلاء الفقهاء إلاّ بنى له مدرسةً أو رباطًا وأجرى عليه رزقًا ليتفرغ للعلم والتعليم والعبادة فلم يكد يطرق سمعه حال «أبى المظفر الإسفراينى» الفقيه الأصولى المتوفى سنة ٤٧١هـ حتى ارتبطه بطوس[4].

ثم الإمام أبو المعالى الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨هـ فقد بنى له «النظام» المدرسة النظامية بنيسابور بعد عودته من دار هجرته إلى الحجاز، وبقى يدرس نحو ثلاثين سنة وكان يحضر حلقة درسه قرابة ثلثمائة رجل من الأئمة والطلبة وتخرج عليه جماعة من الفحول وأولاد الصدور. وصنّف الكتب الكثيرة من أشهرها ـ النظامى والغياثى ـ برسم الحضرة النظامية وأنفذها إلى «النظام» فحلاّ من نفسه موضع الرضا والقبول وقابلهما بما يليق من الشكر والخلع والهدايا

(١) نفس المصدر ص ٢٧٦-٢٧٨.

(٢) هو عبد الواحد إسماعيل بن محمد بن أحمد الروياني، من رؤوس الفقهاء فى أيامه بيانًا واتقانًا. قتل شهيدًا فى مسجد الجامع بأمل طبرستان. ياقوت ـ معجم البلدان ـ مادة روبان جـ ٢ ـ ص ٨٧٣.

(٣) هو المتولى عبد الرحمن بن مأمون بن يحيى النيسابورى درس بنظامية بغداد بعد الشيرازى ثم عُزل بابن الصباغ ثم أعيد إليها بعد مدة. توفى كهلاً ببغداد بعد عشية (السير، مجلد ١١ ص ٥٦١).

(٤) هو شاهفير بن طاهر بن محمد (التبيين ص ٢٧٦).

والمرسومات والمراكب الممتعة[1]... ولمّا وجد من «النظام» هذا التشجيع انصرف إلى التصنيف وألّف «نهاية المطلب فى دراية المذهب» وغيره.

ومن فقهاء الإمامية فى هذه الفترة السيد المرتضى[2] والشيخ الطوسى[3] والطبرسى[4]. ومما يؤسف له ـ فى هذه المناسبة ـ وهو أسفٌ لا ينحصر بمؤلفات هذا القرن فقط: أن يتضخم كتاب «العبادات على حساب المصالح العامة والمعاملات»، وأن يشغل أذهان الفقهاء أنفسهم، ويقضوا أعمارهم، ويشغلوا الناس معهم فى أمور لا تتصل بواقع حياتهم ومشكلات مجتمعهم كالرسائل التى كتبوها فى الطهارة والنجاسة وصنوف العبادات المستحبة من أوراد وأذكار بحيث لا تتفق ومشاغل الحياة، ولا يمكن أن تكون من الفروض الدينية النافعة بأى حال من الأحوال.

٣- علم الكلام:

ويطلق عليه ـ الأصول والتوحيد ـ أيضًا، ونشأ نتيجة لتطور الفكر وتفشّى الجدل الذى اعتمد على المنطق، وانتشار ترجمات الفلسفة اليونانية فى الإلاهيّات.

---

(١) التبيين ص ٢٧٦-٢٨٦، وانظر تفصيل حوادثه ص ٣٥٤ من البحث.

(٢) علم الهدى أبو القاسم على بن الحسين بن الإمام موسى الكاظم: له التصانيف الكثيرة المشهورة منها: الانتصار فى الفقه، والخلاف والذريعة فى أصول الفقه، والذخيرة فى الأصول، والشافى فى الإمامة، وجعل توجيه العلم والعمل، وطيف الخيال وغرر الفوائد ودرر القلائد المشهورة بأمالى المرتضى وغيرها كثير من أهمها: ديوانه الكبير. توفى سنة ٤٣٦هـ (انظر أدب المرتضى ومقدمة ديوانه تحقيق الأديب: رشيد الصفار).

(٣) هو أبو جعفر محمد بن الحسن بن على الطوسى، يلقب بشيخ الطائفة. توفى سنة ٤٦٠هـ، وله كتاب فى التفسير «التبيان الجامع لعلوم القرآن» وله فى الحديث كتابا «التهذيب» و«الاستبصار» وفى الفقه كتاب «النهاية» وكتاب «المبسوط» فى واحد وثمانين جزءًا وكتاب «الخلاف»... وله كتب أخرى فى الأصول والرجال منها «الفهرست» وهو مطبوع فى النجف (القمى عباس ـ الكنى والألقاب ص ٣٥٧).

(٤) أبو على الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى... صاحب كتاب «مجمع البيان فى التفسير» وله فى الفقه كتاب «الوسيط والوجيز والجوامع». توفى سنة ٥٤٨هـ.
(القمى عباس - الكنى والألقاب ص ٤٠٤).

والكلام «كالفقه» لايختلف عن الفلسفة إلاّ بالسمعيات المنقولة عن الرسول. . فهو علم عميق فى عالم واسع لا نهاية لأطرافه، يحلّق الفكر فيه ويحوم حول غامض يحاول أن يجلّيه ويكشف عنه فتارة يهتدى وأخرى يخفق وهو فى الحالتين لا يدرى أضلّ أم أصاب كبد الحقيقة.

وقد توّهم أحد المستشرقين فاتهّم ـ الكلام ـ بالسياسة وأنه ـ وهو علم التوحيد يرسم الصورة التى تستهدفها الدولة فى العهود المختلفة. . ثم قال: «وإنه جزء منها وليست السياسة جزءًا منه» وقد قال ذلك ـ توماس هيوز ـ فلقى معارضة شديدة فى القرن السابع عشر[1].

ولانظن القول حقًا مادام الدين كان رائد الطليعة الأولى من الخلفاء ومادام الدين هو الهدف الأعلى من السياسة والحكم. ولئن كانت الفواصل بين السياسة والدين غير واضحة الحدود ولا بيّنة المعالم فى الحكومة الإسلامية فلا يستطيع مؤرّخ أن يرسل حكمًا عامًا باستغلال الدين فى سبيل النفوذ السياسى، وتوجيه العلم والفكر الوجهة التى يريدها، فإن من المعقول ألاّ نخضع الفكر لحاكم مستبدّ، ولئن اضطر لذلك فترة من زمن فلابد أن ينطلق فيكسر القيود ويخرج على الحكام وعلى القواعد المألوفة التى اصطنعها هو نفسه أحيانًا.

وهذا ما لحظناه على الفكر الإسلامى، فقد تطور بعد وقت قصير وحلّق فى أجواء ما بعد الطبيعة وسجّل ما تمثّل له وتصوره، ثم اختلفوا فيما تمثّلوه وجادلوا فيما تصوروه وصار لكل صاحب رأى مدعّم بالحجّة مستند على دليل له أنصار وله مدرسة وتلاميذ ودعاة فى مختلف الأمصار.

وهناك شىء آخر يدلّنا على أن بحوثهم فى «الكلام» لا تتعدى الدين، ولم يكن الغرض منها سوى التحقيق فى أصول أحكامه. . فقد روت المصادر أن الشافعى كان يتحاشى النظر فى «الكلام» لئلا يشغله عن الفقه، وقد حذّر وهو إمام المذهب الشافعى من الاشتغال به وله فى ذلك تعليل طريف ومحاجة رقيقة

(١) عنان ـ المذاهب الاجتماعية الحديثة.

مع سائل له فى التوحيد يوم كان فى مصر.. قال بعد حديث طويل: «أتدرى كم نجم فى السماء؟. قال السائل: فقلت لا. فقال: فكوكب من هذه الكواكب الذى تراه تعرف جنسيته.. طلوعه وأفوله مما خلق؟ فقلت: لا. قال فشىء تراه بعينك خلق ضعيفًا من خلق اللّه لست تعرفه ثم تتكلم فى علم خالقه.. ولا تتكلف علم ما لا يبلغه عقلك[1] تناظروا فى شىء إن أخطأتم فيه يقال لكم أخطأتم ولا تناظروا فى شئ إن أخطأتم فيه يقال لكم كفرتم»[2].

وقد حاول ابن عساكر توجيه حذر الشافعى من علم الكلام، وأنه لا غاية له إلاّ كلام أهل البدع الذى يخالف الكتاب والسنّة[3]. وهى محاولة لا تخلو من تعسّف ظاهر لأن هذا المصطلح إذا أطلق ينصرف الذهن إلى علم الكلام بمعناه الواسع أولاً.. ولأن تعاليل الإمام تدل على قصده هذا أيضًا، بل إنما «خرج جماعة بالفلسفة ظنّا منهم أن علم الكلام فلسفة»[4].

وسواء أراد الشافعى هذا أو ذاك فإن الحكاية تدلنا على أن الدين هو الدافع لدراسة ـ الكلام ـ وهو العامل فى الخشية منه، وأن التمثيل بالنجوم للاستدلال على عظمة خالقها وغموض ما وراءها ليرشدنا ـ ولو من طرف خفى ـ إلى تنبيه القوم إلى أهميتها واهتمامهم فى دراستها.. وأنها الأجدر بالبحث لأنها أجدى نفعًا وأكثر فائدة وأقرب إلى الحقيقة والواقع.

وقد اشتهر فيه من أعلام هذا العصر.. النسفى المتوفى سنة ٥٣٧هـ وألّف كتابه «العقائد النسفية» فى التوحيد[5] الذى عنى به الفضلاء فشرحه المحقق التفتازانى.. ثم العقيدة النظامية لإمام الحرمين الجوينى.

---

(١) ابن عساكر ـ تبيين كذب المفترى ص ٣٤٢.

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٤.

(٣) المصدر السابق ص ٣٥١.

(٤) السبكى ـ الطبقات جـ ١ ص ١٩٨.

(٥) هو نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد بن إسماعيل السمرقندى الحنبلى.. أصولى متكلم ألّف كتبًا كثيرة منها «كلية الكلية فى الاصطلاحات الفقهية وزار الزمخشرى وحدثت بينهما مساجلة نحوية طريفة حول اسم عمر المرجح القمّى عباس ـ الكنى والألقاب جـ ٣ ص٢٠٧.

٤- التنجيم والفلك والرياضيات:

وكان للاعتقاد بالقضاء والقدر أثره فى تقدم ـ التنجيم والفلك ـ كما كان لهما أثر أكبر فى رسوخ هذا الاعتقاد فى أذهان الخاصة والعامّة على السواء، وأقبل العلماء يتدارسون مواقع النجوم وطبائعها وأبعادها وحجومها، وحالات شروقها وغروبها ومدى صلتها بالأرض والناس الذين يعيشون على ظهرها.

والقضاء والقدر ـ كما تبينَّ من أمهات المسائل الدينية ـ فكرة غيبية لجأ إليها الإنسان عندما حار فى تعليل بعض الأحداث التى تقع له فى الحياة وعجز عن دفعها عنه، وهكذا كان موقفه عند كل مجهول لا يجد له تفسيرًا ولا يستطيع له تحويلاً... كالأمراض والغنى والفقر، والشهرة والغمر، فإنه أرجعها إلى فعل الكواكب وتأثيرها فى توجيه معاشه منذ ولادته.

وليس بمستبعد أن تفسير مظاهر الحياة بتحركات الأفلاك وطبائع النجوم من بقايا عبادة الإنسان لها حينما بهرته بتناسقها وبقائها وقوة ضوئها. لذلك يمكننا القول بأنه أسبق من تفسيرها بالقضاء والقدر، وأنه قد مال إليه حينما تزلزلت عقيدته فى قدرة النجوم ورأى أنها لاتملك لنفسها قوة فى شروق وأفول[1].

والفلك بفروعه كالقضاء والقدر: آراء فى المغيبات وأحكام تقديرية فى البعيد المجهول فكأنها من مواضيع ما وراء الطبيعة، لذلك اعتبرت واحدًا من فروع الفلسفة الرياضية... وكان الفلك بفروعه من ثقافات هذاالعصر التى ذاعت فى مختلف الأوساط، وقد بلغ شأوًا بعيدًا بحيث تميزت أنواعه بعد أن كانت متداخلة وكان يشتملها الفلك تارة والهيئة أخرى وعلم النجوم ثالثة، وعاف العلماء ماكان شعوذة ودجلاً كالتنجيم مثلاً وسخروا بأصحابه.

وكانت عنايتهم به لأغراض منها ما يتعلق بالدين كمواقيت الغروب

---

(١) الآيات ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ لانعام آيه ٧٧، ٧٩ (هذه الآيات وردت فى القرآن على لسان سيدنا ـ إبراهيم الخليل ـ أبو الانبياء).

والشروق والزوال لتعيين مواعيد الصلوات والأهلّة بالنسبة لرمضان وموسم الحج والأعياد والخسوف والكسوف... ومنها ما يتصل بالحياة المعاشة لمعرفة الفصول لتحديد مواسم الأمطار والرياح والبرد والحر وأثر ذلك على المحاصيل الزراعية وعلى التجارة، وثالث هذه الأسباب اعتقادهم بتأثير الأجرام السماوية على أمزجة الناس وصحتهم وسعادتهم ونحسهم.

وقد قسّموه تبعًا لأغراضه تلك إلى أقسام ثلاثة: فما يبحث فيه عن عدد النجوم وأشكالها ومقاديرها وأبعادها سمّوه بعلم الفلك، وما يبحث فيه عن حركات النجوم ووصف ما يعرض لهامن أحوال وهى تجرى فى مداراتها دعوه بعلم الهيئة[1].. ثم ما يبحث فيه عن علاقة النجوم وطوالع البروج على الكائنات وأثرها فى حياة الناس أطلقوا عليه ـ علم الأحكام[2] وهو التنجيم.

والذى يظهر لنا من ذلك أن التنجيم ليس فرعًا ثالثًا كما توهم المصنفون لأقسام العلوم وإنما هو النتيجة العلمية لتلك المعرفة النظرية للأجرام السماوية فى مسالكها.. وأن هذه الأقسام الثلاثة إنما هى لعلم واحد وتلك موضوعاته.. من ناحيتها التجريدية والتطبيقية.. ومما يدعّم هذا ما ذكره ـ نظامى عروضى ـ عن أبى الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م من أن الهيئة والأحكام من الشرائط الأربعة التى ينبغى أن تتوافر فى المنجّم بعد الهندسة والحساب[3].

ويضعه «ابن سينا» من أكبر مصنفى العلوم فى أوائل القرن الخامس الهجرى ضمن العلوم العقلية ويجعل من فروعه ـ الزيجات والتقاويم[4] . ومما يلفت النظر ويدلنا على تقدم الفلك والرياضة فى هذا العصر عمل «الزيج الجلالى» فإن التقويم السنوى الذى وضع فى عهد السلطان ـ ملكشاه ـ وبناء على توصيات وزيره «النظام» وتحت إشرافه كان أفضل من الغريغورى، وذلك لأن

(١) نللينو ـ تاريخ علم الفلك عند العرب فى القرون الوسطى ص ١٨.

(٢) سرّ الأسرار والسياسة فى مد الرياسة المنسوب إلى أرسطو ص ٨٦، وكذلك الرسالة الثامنة من رسائلهم مبادئ علم النجوم جـ ١/٥٦.

(٣) جهار مقاله ص ٦٢ (الترجمة).

(٤) تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات ص ١١١-١١٢ جـ ١.

هذا يؤدى إلى خطأ ثلاثة أيام من كل عشرة آلاف سنة مع أن التقويم العربى لا يؤدى إلاّ إلى خطأ يومين فى مثل ذلك الدور[١].

كل هذا يدلنا على شئ ذى أهمية كبيرة فى تاريخ الحضارة العالمية فضلاً عن الإسلامية ذلك أن العلوم الرياضية، والتطلع إلى دراسة الأجواء ومعرفة أسرارها بلغ من الرقى بحيث قد شيّد فضلاً عن التقويم مرصد للكواكب بناء على طلب السلطان ـ ملكشاه ـ ووزيره النظام سنة ٤٦٧هـ وكان ممن اشتركوا فى إعداده الخيّام، وأبو المظفر الاسفزارى، وميمون النجيب الواسطى[٢] وغيرهم من مشاهير الرياضيين فى هذا العصر.

ومهما يكن نظر العلماء نحو النجوم فإن الاعتقاد السائد بأثرها على حياة الناس من حيث السعادة والشقاء، والفقر والغنى والصحة والمرض كان يسود العامة وبعض الخاصة لذلك لا نجد طبيبًا إلاّ وكان له إلمام بعلم النجوم حتى صار بمنزلة ـ علم النفس ـ بالنسبة لطب الأبدان فى العصر الحديث. لذلك كان للسلطان ملكشاه منجمه الخاص وهو ـ بهرام ـ وجماعة من أصحاب الرصد الذين يشيرون عليه بمحاسن الأيام فى الخروج إلى الصيد أو الحرب أو القيام بالاحتفال وتعيين موقع المحراب عند بنائه جامعًا وأمثالها[٣]. وكذلك كان لوزيره «النظام» منجمّه الخاص وهو ـ الحكيم الموصلى ـ الذى لم يفارقه إلاّ عند شيخوخته ولم يكن سوى فراق فى السكن. أمّا الاستشارات والإرشادات إلى أسعد الأيام وأشقاها فإنها لم تنقطع إذ رجاه أن يبعث إليه من نيسابور كل عام تقويمًا وتحويلاً[٤].

واشتهر فى الفلك والرياضيات فى هذا العصر عدد من العلماء كان فى

---

(١) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب (ترجمة زعيتر).

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم، حوادث ٤٦٣هـ وابن الأثير ـ الكامل، حوادث العام نفسه.

(٣) ابن الأثير ـ الكامل، حوادث ٤٨٤ هـ جـ١٠ ص ٨٢، والمنتظم لابن الجوزى ـ واسمه درهم ـ حوادث ٤٨٥هـ.

(٤) نظام عروضى ـ جهار مقالة ص ٦٨، ٦٩ (ترجمة د/ يحيى الخشاب وعبد الوهاب عزّام).

مقدمتهم «البيرونى»[1] الذى لم يعرف أحذق منه فى علم الفلك وقد شهد له العلماء فى أنواع الرياضيات والذى كان موضع تجلّة واحترام من قبل ملوك العصر يومذاك، وكذلك ـ الخيّام ـ زميل «النظام» فى مدرسته وبعد استيزاره.

٥- الطب:

وكانت نظرة الناس ـ آنذاك ـ إلى الأطباء ملؤها الإجلال والإكبار إذ الطبيب ـ حينذاك ـ ينبغى أن يكون ملمّا بأصناف العلوم، آخذًا بأطرافها، عارفًا بالفنون الرياضية.. وكان الخاصة ـ ولا سيما الحكام ـ يختصّ الواحد منهم بطبيب.. كما انفرد بمنجّم إذا لم يكن جامعًا بين الطب والتنجيم فى مستوى واحد.

ولئن كان الطب لم يبلغ المرحلة التى وصل إليها اليوم، إلاّ أنه ـ من غير شك ـ قد تفَّوق على العصور التى سبقته بما عرف عن مشاهير الحكماء فى هذا العصر. وربما كانوا قد سبقوا أطباء العصر الحديث بمراحل فى شعورهم بخطورة المهمة الملقاة على عواتقهم.. وخشيتهم عقاب الآخرة إذا تظلم المرضى إلى خالقهم، فابن بطلان البغدادى[2] المتوفى سنة ٤٤٤هـ يكتب إلى زميله ـ ابن رضوان ـ الفيلسوف المصرى رسالة يختمها بقوله: «وليتحقق أن اللذة بمضغ الكلام لا تفى بغصّة الجواب، فإن لنا موقف حساب، ومجمع ثواب وعقاب، يتظلم المرضى إلى خالقهم، ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية فى هلاكهم». وقد خلّف «ابن بطلان» هذا كتابا سمّاه «دعوة الأطباء» قدّمه للأمير نصر الدولة أبى نصر أحمد بن مروان.

وكان منهم «أبو الحسن سعيد بن هبة اللّه» المتوفى سنة ٤٩٤هـ طبيب

---

(١) هو محمد بن أحمد أبو الريحانى البيرونى ـ مات السلطان محمود سنة ٤٢٢هـ وهو حى بغزنة، وكان فوق تبحره فى العلوم أديبًا لغويًا له فى ذلك تصانيف عدّة... وقد رأى ـ ياقوت ـ فهرس كتبه فى شتى العلوم فى وقف الجامع بمرو فى نحو الستين ورقة بخط مكتنز ـ ياقوت ـ المعجم جـ ١٧ ص ١٨٠ : ١٩٠).

(٢) هو المختار بن الحسن بن عبدون، سافر إلى حلب ومصر واجتمع بابن رضوان وجرت بينهما مناظرات أدت إلى منافرة.. وعاد إلى أنطاكية مترهبًا فى أحد أديرتها إلى أن توفى.

الخليفة «المقتدى بأمر الله العباسى» وله كتاب «الأسباب والعلامات» وكتاب «الإقناع» فى الطب[1]، وقد تخرّج عليه «يحيى بن عيسى بن جزلة»[2] الطبيب البغدادى المتوفى سنة ٤٩٣هـ، صنّف كتاب «تقويم الأبدان فى تدبير الإنسان» للخليفة المقتدى وكتاب «مناهج البيان فيما يستعمله الإنسان». وكتاب المنهاج جمع فيه أسماء الحشائش والعقاقير والأدوية.

ومن مجاهيل الأطباء الذين يجب أن نشير إليهم - ابن أبى صادق النيسابورى - المتوفى سنة ٤٧٠هـ[3]، وله كتاب الطب المعروف باسمه وقد فرغ من تأليفه سنة ٤٥٩هـ.

ومن مشاهير الطليعة فى ذلك العصر الشيخ الرئيس «ابن سينا» المتوفى سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٢٧م وله فى هذا العلم كتاب «القانون» الذى ظل مرجعًا يعتمد عليه الدارسون فى جامعات الغرب إلى أواخر عصر النهضة الأوروبية، كما تحدثنا عنه آنفا.

من العلوم النقلية:

وهى صنفان: روائية وتعتمد أكثر ما تعتمد على الرواة كالحديث والتاريخ، ولسانية.. تهدف إلى تقويم اللسان بالنطق الصحيح والارتفاع به إلى مستوى بلاغى.

وقد خلّف العرب مجموعة من العلوم اللسانية لا تقل عن نظيرتها العقلية

---

(١) وهو أبو الحسن يحيى، كان نصرانيًا ثم أسلم وصنّف رسالة فى الرد على النصارى.. وذكر فيها عوار مذهبهم ومصايب اليهود، وقد قرأ على ابن الوليد شيخ المعتزلة «الكلام والألفاظ المنطقية والمنطق». ولما مرض أوقف كتبه على مشهد الإمام أبى حنيفة.

(١) الكنى والألقاب جـ ١ ص ٢٣٣.

(٢) ذكره ابن أبى أصيبعة فى «عيون الأنباء» وقطب الدين اللاهيجى فى كتابه «محبوب القلوب» المخطوط- قال عنه صاحب «مطرح الأنظار» بالفارسية أن الوزير الكندرى قد استدعاه لمرض القولنج الذى أصابه وأرسل إليه فرسه الخاصة مع غلامه فامتنع عن الذهاب إليه وقال القنوع لا يرخص لخدمته السلطان، ومن أكره على الخدمة لا ينتفع بخدمته كالبازى الذى يكره على الصيد.. (وتوجد نسخة من كتابه فى مكتبة الطبيب «محمد الخليلى» فى النجف بخط يرجع إلى سنة ٤٩٩ه).

والرواتية فى بعض صورها ـ جدة وأصالة وربما فاقتها دقة وتفصيلاً. . فقد عنوا بها قدر عنايتهم بالقرآن والحديث. . . وكان القرآن ـ كما يعتقد بعضهم ـ هو الحافز الأول فى ابتكار هذه المجموعة وتفريعها والدافع الوحيد للاهتمام باستنتاج قواعدها وتخريج أحكامها، واستنباط فصولها وأبوابها، فالنحو والصرف مثلا، دراسة لاشتقاق الكلمة ومعرفة أواخرها فى الجملة إعرابًا وبناءً. والبلاغة بحث فى أسلوب القرآن وطرق فهمه ومراميه فى القول[1] حتى عرّفها أبو هلال العسكرى: «بأنها الوسيلة لمعرفة إعجاز القرآن»[2]. . . وحتى عدّها الجرجانى أحسن العلوم وأشرفها وألّف كتابه «دلائل الإعجاز» ليستدّل على ذلك[3].

غير أننا ـ وإن كنا لانغفل أثر القرآن فى نشأة هذه المجموعة فإننا ينبغى ألاّ نهمل تأثير العقل النامى فى تطويرها وتنويعها. . وأن اختلاط العرب بالأمم وامتزاج ثقافاتهم من أولى العوامل فى نموها وازدهارها، كما أن حياة الأمن والاستقرار من ناحية وروح المنافسة بين الخلافتين العباسية والفاطمية والمذهبين السنّى والشيعى من العوامل التى ساعدت على تقدمها.

نحن نعلم كيف بدأت الخصومات فى قواعد اللغة وأساليبها إلى أن انتهت إلى فلسفتها وصارت لها مدارس فى الكوفة والبصرة ثم فى بغداد، وكيف توصل أساتذة تلك المدارس إلى اكتشافات فى أسرار اللغة واهتدوا إلى اختراعات فنون جديدة أضيفت إلى مجموعة اللغة فوصلت إلينا هذه المكتبة الضخمة الزاخرة بذخائر الأفكار. . الحافلة بجليل الآراء.

وكان سيرًا طبيعيًا أن تبدأ سنّة التطور الفكرى عند العرب بتلك المشادّة اللغوية بعد أن اختلطوا بالأعاجم، والتقت الثقافات اليونانية والفارسية

---

(١) الخولى ـ دائرة المعارف الإسلامية. . مادة بلاغة. وابن خلدون ـ المقدمة ص ٣٥٥، وابن الأثير ـ المثل السائر جـ ٣.

(٢) الصناعتين جـ ٢ (الطبعة الأولى).

(٣) الدلائل جـ ٤ (الطبعة الخامسة).

والهندية والرومانية بالعربية... وكان تطوراً سريعًا سابق عجلة الزمن بما انتهى إليه من ابتكارات واستنتاجات بمثابة البذرات النامية التى أثمرت بعد قليل من الزمن فبقى منه بين أيدينا ما نتدارسه ونرجع إليه بأسماء علوم النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والعروض وغيرها.

وقد تجتمع هذه كلها فى كتاب يحوى عدة أجزاء ومئات الصفحات تحت عنوان واحد هو التفسير مثلاً أو شرح ديوان أو إحدى المعلقات فكان الكتاب العربى أحيانًا يبلغ العديد من المجلدات مشتملاً على مختلف الموضوعات. وبذلك صار الفقيه أو المتكلم أو المنجّم موسوعة تضم بين جوانحها هذه المعارف وما يمهد لها ويتصل بها كما كان الكتاب موسوعة تضم بين دفتيها تلك العلوم وما يتعلق بها.

لم تجد فكرة الاختصاص ـ بالمعنى الذى نعرفه اليوم ـ أنصاراً لها فى مدرسة العلماء أو الأدباء فكثيراً ما يكون الفقيه والحكيم قد ألمّ بأطراف الفنون الأدبية حتى لينظم الشعر وينقد الشعراء كالبيرونى والمعرّى وأمثالهما... وكثيراً ما يكون الأديب قد أحاط بفروع العلوم حتى ليؤلف فيها كواحد من رجالها كالجاحظ.. مثلاً، إذ كان لابد لمن يدرس علم الشريعة ويدرك أصوله أو الذى يود أن يتضلع فى لغة القرآن ويتفهم مقاصدها ومعانيها أو يكون من الأدباء الهواة أو المحترفين أن يتقن ما لا يقل عن اثنى عشر فرعًا من علوم العربية حتى ظهر بينهم من درس فى سبعة عشر نوعًا من العلوم كأبى منصور عبد القاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩هـ[1].. ولذلك كان من العسير على الكاتب أن يأتى بمثل فى العلم أو الأدب، وقد تفرّد فى واحد منهما فضلاً عن التخصص فى واحد من فروعهما.

١ - القرآن والحديث:

ففى التفسير مثلاً نجد شواهد عديدة على هذا التوسع فى المعلومات والتضخم

(١) ابن عساكر ـ التبيين ص ٢٥٤.

فى الكتاب، ومما روت الأخبار بهذا الخصوص أن «النسفى الماتريدى» (٤٦٠-٥٣٧هـ) ألّف كتابه «التيسير فى التفسير» ـ وقد جمع فيه الصرف والنحو واللغة والقراءات والكلام والفقه وأسباب النزول[١].

وقيل كذلك أن «المجاشعى التميمى» المتوفى سنة ٤٧٩هـ صنّف كتاب ـ الإكسير فى التفسير ـ فى خمسة وثلاثين سفرًا، ومؤلفًا فى النحو فى عدة مجلدات وآخر فى الدول فى أزيد من ثلاثين، وقد طوّف الدنيا واتصل بـ«نظام الملك»[٢] ومدحه بشعره.

ومثل هذا حكى عن «التفسير الكبير» لأبى يوسف القزوينى ـ المتوفى سنة ٤٨٨هـ ـ قال عنه الذهبى: « إنه لم ير من التفاسير كتابًا أكبر منه ولا أجمع للفوائد لولا أنه مزجه بكلام المعتزلة وبثّ فيه معتقده».. وقال عنه فى موضع آخر نقلاً عن ابن النجار: «إنه فى خمسمائة مجلد.. حشا فيه العجائب حتى رأيت منه مجلدة فى آية واحدة.. هى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾[٣].. فذكر فيه السحرة والملوك الذين نفق عليهم السحر وأنواع السحر وتأثيراته»[٤].

وكان هناك غير هؤلاء من أعلام المفسرين ـ الواحدى النيسابورى ـ المتوفى سنة ٤٦٨هـ وله كتاب «البسيط والوسيط» وأبو عبد اللّه النهروانى المتوفى سنة ٤٩٣هـ مؤلف كتاب «القانون» وهو عشرة مجلدات فى اللغة والتفسير، وبه تخرّج أدباء أصبهان وتأدب أولاد «نظام الملك»[٥].

(١) هو أبو حفص عمر بن أحمد من كبار علماء الأحناف ولكتابه هذا عدة نسخ. انظر مجلة معهد المخطوطات جـ ١ المجلد الرابع ص ١١.

(٢) هو أبو الحسن على بن فضال بن على بن غالب القيروانى الفرزدقى. قيل إن إمام الحرمين وعده بألف دينار على كتاب «الإكسير» فلمّا فرغ من قراءته عليه لم يعطه شيئًا فوعده بأن يهجوه، فبعث إليه يستميحه العذر (السير جـ ١١ ص ٥٢٥).

(٣) سورة البقرة ـ من الآية ١٠٢.

(٤) هو القاضى عبد السلام محمد بن يوسف بن بندار شيخ المعتزلة وداعيته، أقام بمصر سنين وعاد منها إلى بغداد بأحمال من الكتب قيل ابتاعها بالخبز وقت شدة الغلاء، وقيل بالأثمان الغالية.. (تاريخ الإسلام للذهبى جـ ١٢ ورقة ١٧، والسير جـ ١١ ص ٥٧٤).

(٥) يعرف بابن الفتى وهو سليمان بن عبد الله أبى طالب بن محمد النهروانى ثم الأصبهانى.

أمّا الحديث فربما كانت العناية بنصوصه أقوى والاهتمام برواته أشد، وذلك لأن الشك فى صحة النص وصدق الرواة أخذ يتضاعف بمرور الأعوام وتزايد الوضّاع، وتكاثر المتحل.. وهذا مما لم يحدث فى القرآن، لذلك كان لابد ـ لدارس الحديث وهو المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن ـ من التثبت أولا: من صحة الرواية وصدق السند وسلامة رجاله، وثانيًا: التأكد من فهم النص ومعرفة القصد منه ومدى تطبيقه. فكان لابد من فتح مدارس، وتخصّص أساتذة يقضون جلّ أوقاتهم ومعظم أعمارهم فى هذه الدراسة الواسعة.

وكان المعنيون بالحديث يطوفون البلدان من أجل سماع حديث عالى السند أو استملاء آخر على يد أستاذ اشتهر بالدقة والتحقيق. ومن أجل ذلك كانوا يفضلون لقاء الرجال على الدراسة فى الكتب، ولاسيما الحديث لاحتمال تحريف النسّاخ فيها.

ولمزيد عناية الناس وبخاصة الحكام بالحديث ورعايتهم للمحدّثين كانوا يؤسسون لهم الدور والربط ويظهرون الفرح إذا ولىّ أحدهم القضاء[1]، حتى عجّت حواضر العالم الإسلامى بالمحدثين وفى مقدمتها «بغداد» و «نيسابور» و «أصفهان»، وأقبل هؤلاء على دراسةالحديث نصًا ورواة، ودراسة تحليل ونقد... وشاعت هذه الدراسة فى أوساط المتعلمين بحيث قلّ أن نجد بين أساتذة الشريعة والفقهاء والمؤرخين من لم يكن راوية للحديث أو ألّف فيه أو فى رجاله.. وكان من هؤلاء من عرف بالفقر فيجمع بين التعلم والعمل.. كأبى سعد الخركوشى المتوفى سنة ٤٠٧هـ الذى كان يعمل القلانس[2] ومنهم من لا يجد عملاً فيطالع فى ضوء القمر كأبى منصور الأيوبى تلميذ ابن فورك المتوفى سنة ٤٢١هـ.

وكان سماع الحديث وروايته من الثقافات التى يسوغ للمرأة أن تشارك الرجل

(١) ذكره ابن عساكر فى ترجمة البسطامى حينما ردد العهد بقضاء نيسابور. توفى سنة ٤٠٨هـ (التبيين ص ٢٣٨).

(٢) ابن عساكر ـ التبيين .

فيها، فإذا سمعت ورويت نالها من التجريح والتعديل ما ينال الرجل فى السند والرواية.. وممن لمعت أسماؤهن فى هذا العصر: خديجة بنت موسى بن عبد اللّه الواعظة التى توفيت سنة ٤٣٧هـ[١]. وسبتة بنت القاضى عبد الواحد البجلى المتوفاة سنة ٤٤٧هـ، وخديجة الشاهجانية ـ ٤٦٠هـ[٢]، وفاطمة بنت الأقرع الكاتبة ـ ٤٨٠هـ[٣]، وفاطمة بنت الحسين بن فضلون الرازى ـ ٥١٢هـ وكان ممن روى عن أبى عبد الله الحسين بن أحمد بن طلحة ـ مسند العراق المتوفى فى سنة ٤٥٣هـ من النساء كمال بنت المحدث عبد البر بن السمرقندى وتركنار بنت عبد الله الدامغانى، ونفيسة البرازة، وتجنّى الوهبانية، وشهدة بنت الأبرى[٤].

وهكذا لم تمض خمس سنوات على مطلع القرن الخامس حتى يتوفى الحاكم ـ أبو عبد اللّه بن البيع النيسابورى صاحب المؤلفات المشهورة فى الحديث التى أوصلها بعضهم إلى ألف وخمسمائة جزء وفى أولها «الصحيحان» بعد أن قضى ٨٤ سنة فى التطواف[٥] والكتابة فى الحديث.

ثم يتوفى بعد ست من هذا القرن ـ ابن فورك الأصبهانى النيسابورى ـ وقد بنى له أميرها محمد بن إبراهيم، الدار والمدرسة[٦].

ثم يتوفى بعد سبع منه ـ أبو سعد بن عثمان النيسابورى الخركوشى ـ بنى

---

(١) هى أم سلمة المعروفة: بابنة البقال.

(٢) من أهل كشميهن، قرأ عليها الأئمة كالخطيب وابن المطلب والسمعانى وأبى طالب الزيدى.

(٣) هى فاطمة بنت على المؤدب الكاتبة على طريقة ابن البواب وأُهلّت لحسن خطها لكتابة عقد الهدنة إلى ملك الروم من الديوان العزيز وسافرت إلى بلاد الجبل الى عميد الملك الكندرى (المنتظم جـ ٩ ص ٤٠، والكامل جـ ١٠ ص٦٠، وابن الفرات جـ ٧ ص ٥١).

(٤) انظر ترجمتها فى السّير للذهبى جـ ١٢ ورقة ٤٣، وسبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان جـ ٨ ص ٢٢٤، وتاريخ ابن الفرات جـ ١ ص ٦٥ وجـ ٧ ص ٤٣، وبغية الملتمس ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(٥) ابن عساكر – التبيين .

(٦) ابن عساكر ـ التبيين ص ٢٣٢.

فى سكنه المدرسة ودار المرضى ووضع فى المدرسة خزانة للكتب، وصنّف أعدادًا من الكتب صارت تاريخًا لنيسابور[1].

وبعد ثمانية عشر عامًا بنى - أبو إسحاق الإسفراينى - مدرسته التى لم يُبن بنيسابور قبلها مثلها ودرس فيها وحدّث وبلغ حدّ الاجتهاد لتبحره فى العلوم[2].

واشتهر غير هؤلاء عدد كبير فى هذه المدينة منهم: أبو بكر أحمد البيهقى - رحل إلى العراق والحجاز والجبال... وألّف كتاب «معرفة السنن والآثار»[3].. ومنهم أبو القاسم القشيرى الذى كان يعقد مجلس الاملاء فى الحديث طوال ثمانية وعشرين عامًا من سنة ٤٣٧هـ حتى توفى سنة ٤٦٥هـ وكان يذيّل أماليه بأبياته[4].. وكان زاهدًا متصوفًا حيث قلّ أن نجد محدّثا غير متصوف فى هذا العصر.

ونكتفى بعد هذا بمثالين فقط على محدّثى بغداد وأصبهان فى عصر «النظام» أولهما: أبو بكر المعروف بالخطيب البغدادى، وكتابه الشهير بتاريخها، والذى يحتوى على عشرين مجلدًا ضخامًا. وقد ألّفه لحصر تراجم المحدثين الذين وفدوا إلى بغداد أو ولدوا فيها والتعريف بهم إلى الدارسين وبخاصة رواة الحديث ومليه[5]. وثانيهما: كان من مشاهير المحدثين بأصبهان وهو «أبو نعيم

---

(١) التبيين ص ٢٢٤-٢٣٦.

(٢) التبيين ص ٢٤٤.

(٣) كتب الحديث وحفظه.. طلب منه الأئمة الانتقال إلى نيسابور لسماع كتاب «المتصوفة» وغيره من تصانيفه.. فوصلها سنة ٤٤١هـ وعقد له المجلس لقراءة الكتاب وحضره الأئمة والفقهاء وبقى حتى مات سنة٤٥٨هـ (التبيين ص ٢٦٥).

(٤) كان هو المقصود بصحابة الكندرى وشتمه الأشاعرة (التبيين ص ٢٧١-٢٧٦).

(٥) كان يجتمع العلماء فى منزله بباب الشريف لقراءة التاريخ على الرغم من عيب بعضهم للتاريخ. أوقف جميع كتبه على المسلمين، وأخرجت جنازته من حجرة تلى المدرسة النظامية من نهر معلى سنة ٤٦٣هـ وتبعه الفقهاء وخلق عظيم (التبيين ص ٢٦٨ : ٢٧١).

الحافظ» مؤلف حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الذى توفى سنة ٤٣٠هـ بعد أن بلغ من السن أربعة وتسعين عامًا[١].

وينبغى ألاّ تفوتنا ونحن نمثّل لمشاهير المحدثين فى شرق العالم الإسلامى، الإشارة إلى عنايتهم بالرواة وتحقيقهم فى سِيَرْ رجال السند من حيث الجرح والتعديل. وكان ممن ألّف فى هذا الموضوع أبو العباس النجاشى، المتوفى سنة ٤٥٠هـ[٢]، وقد اشتهر بكتابه فى الرجال.

٢- التاريخ:

ويحسن بنا ونحن نوجز القول فى العلوم النقلية أن نشير إلى التاريخ بوصفه واحداً من هذه المجموعة المتميّزة فى هذا القرن.

والظاهرة التى بدت تتضح وتتخذ طابع الجنى والإثمار، بعد النضج والاختمار هى ظهور تواريخ المدن، وبذلك انتقل التاريخ إلى مرحلة الجمع بين الأشخاص وآثارهم بعد أن كان مختصا بواحد منهما. وربما كان تدوين المؤرخين قبلهم فى المسالك والممالك، وتقويم البلدان مما عجل فى إخراج هذا اللون من التاريخ إلى الظهور، وكان أول ما يلفت النظر فى هذا الباب تاريخ «بغداد» للخطيب المتوفى سنة ٤٦٢هـ، وتاريخ «تلمسان» لابن الأصغر المتوفى سنة ٤٦٥هـ، وتاريخ «جرجان» لعلى بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٤٦٨هـ، وتاريخ «شيراز» بالفارسية لهبة اللّه الشيرازى المتوفى سنة ٤٨٥هـ، وتاريخ «هَمدَان» لأبى شجاع محمد بن الحسن الهَمَدانى المتوفى سنة ٥٠٩هـ، وتاريخ «بيهق» بالفارسية لأبى الحسن على بن زيد البيهقى المتوفى سنة ٥٦٠هـ، ثم

---

(١) التبيين ص ٢٤٦.

(٢) هو أحمد بن على بن أحمد بن العباس من الإمامية الذين لايشق لهم غبار فى علم الرجال (القمى - الكنى والألقاب.

تاريخ «دمشق» لابن عساكر فى ثمان مجلدات (سنة ٤٩٩-٥٧١هـ)، وتاريخ «أبيورد» للشاعر الأبيوردى المتوفى سنة ٥٠٧هـ، وتاريخ «سمرقند» للنسفى المتوفى سنة ٥٣٧هـ.

وكان لهذه الكتب جميعهًا لونها الخاص فى أسلوب العرض، وفى التحقيق، والاستقصاء للأحداث يختلف عما كانت عليه المدوّنات التاريخية فى العصور التى سبقت.

على أن العصر لا يخلوا من مؤرخين عنوا بالتاريخ العام فألّف ـ مسكويه ـ المتوفى سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م ، الكتاب الذى عرف باسمه. ثم ألّف كتاب «أنس الفريد» وهو أحسن كتاب صنّف فى الحكايات القصار والفوائد اللطاف.[١] ويصفها «ميتز» بانها: «من نوع يغاير كل المغايرة القصص القديمة التى ألّفها ابن قتيبة» وصاحب كتاب «العقد الفريد»، ففيها تجد لأول مرة الأسلوب القصصى الإسلامى[٢]. وألّف أبو الفضل البيهقى كتابه الذى اشتهر باسمه فى ثلاثين جزءًا دوّن فيها تاريخ دولة آل سبكتكين من سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م إلى سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م لم يصلنا منه سوى جزء واحد ضخم[٣].

ثم البيرونى ـ أبو الريحان محمد بن أحمد ـ المتوفى سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م صاحب كتاب «الآثار الباقية فى القرون الخالية» و«تحقيق ما للهند من مقولة» والذى يعتبر بكتابه هذا من أعظم المؤرخين فى العقائد والديانات بل فى تاريخ المعارف الإنسانية عامة بأسلوب تحليلى معلّل.

---

(١) ميتز ـ الحضارة ص ٤١٩ عن تاريخ الحكماء للقفطى ص ٣٣١.

(٢) نفس المرجع.

(٣) قام بترجمته الأستاذان «د/ يحيى الخشّاب وصادق نشأت» مع تحقيقات وشروح قيّمة سنة ٩٥٧هـ.

٣- البلاغة والنحو:

لقد كان القرآن ـ بحق ـ هو محور الحركة الفكرية خلال القرون الخمسة الأولى من تاريخ حضارة العرب الإسلامية وكان قطبا هذا المحور هما: البصرة والكوفة، بينما كانت نقطة المركز هى بغداد عاصمة الخلافة.. ومن هذا المحور «الدينامى» شعّت أنوار النهضة العلمية نحو الأطراف فى الشرق والغرب. الشرق فى خراسان وما وراء النهر وفارس، والغرب فى سوريا ومصر والأندلس حتى قال الصاحب بن عباد: «هذه بضاعتنا ردّت إلينا» حينما تأمل بكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٣٨هـ. ولم يكن ابن عباد هذا عربيّا فى نسبه وإنما كان عربيّا فى لغته وثقافته، وكان يعتز بهما اعتزازه بأصله وحسبه.

وعلى هدى من هذا نستطيع القول بأن الكتب البلاغية للّغة العربيّة التى ظهرت فى هذا العصر والذى يليه إنما هى من ثمار بغداد ونظاميتها بالذات، وإن كان مؤلفوها من أصبهان أو جرجان، إذ كانت العربية لغة الأمة الفاتحة وثقافة الدين الإسلامى هى اللغة السائدة فى كل بلد تصل إليها يد تلك الأمة، ويرفرف على ربوعها علم ذلك الدين واضطرت اللغات التابعة إلى أن ينطوى بعضها على نفسه، وأن ينضوى بعضها الآخر تحت لواء اللغة الظافرة، فظلّت العربية بمجموعة علومها وفنونها هى طابع هذا العصر كما كانت من قبل.

ونالت هذه اللغة عناية فائقة من المتعلمين على اختلاف درجاتهم.. فبحثوا عبارتها وأسلوب الصياغة فى جملها وفقراتها، كما درسوا مفرداتها واشتقاق ألفاظها، فكان النحو والصرف والبلاغة، وألّفوا المطولاّت فى كل واحدة من هذه الفنون.. وكانت البلاغة التى هى جماع فنون اللغة العربية وموطن أسرارها ـ موضع اهتمام عِلية المثقفين فى هذا العصر، فينبغ ـ ابن سنان

الخفاجى المتوفى سنة ٤٦١هـ وعبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ، والراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢هـ، والزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ. . ويخلّفون لنا من مؤلفاتهم: «سر الفصاحة» و«أسرار البلاغة» و «دلائل الإعجاز» ثم محاضرات الأدباء والمفردات. . فأساس البلاغة والكشّاف والمفصّل وربيع الأبرار التى مازالت من أمهات المراجع فى أصول النقد الأدبى وفن القول خلال عشرة قرون، والتى لم يؤلف مثلها حتى اليوم. . كما ترك بعض هؤلاء دواوين شعرية إن قلّت ضخامة عن كتبهم النثرية، فإنّها لا تقل نفاسة وجودة عنها.

وقد ضمّن الزمخشرى كتابه «المفصل» شرحًا مسهبًا لآراء النحاة واختلاف مذاهبهم فى عشرة أجزاء ضخام، كما فسّر فى كتابه «الكشاف» «آى القرآن» تفسيرًا بلاغيًا وكشف عن أسرار الإعجاز فيه وفى العربية معًا. وبذلك توصّل إلى وضع كتابه «أساس البلاغة».

وكان من ظواهر العناية بالمفرد والجملة والتلاعب باللفظ والبراعة فى تنسيق العبارة أن نقرأ مقامات الحريرى البصرى المتوفى سنة ٥١٦هـ، وأمالى بن الشجرى المتوفى سنة ٥٤٢هـ وصاحب كتاب الحماسة.

وبذلك حفل هذا القرن (عصر النظام) بمؤلفات ضخام فى النحو إلى جانب البلاغة مما لم يشهده القرن الرابع، حيث لم نر فيه سوى تلخيص لمفصل وتفصيل لمجمل أو شرح لمبهم[1]، فمن أبرز الأمثلة على ذلك كتاب ـ المفصّل ـ السابق الذكر فى عشرة مجلدات، وكتاب ـ العوامل المائة للجرجانى والعوامل والهوامل لشاعر الحرمين المجاشعى.

---

(١) عبد الرزاق محيى الدين ـ أدب المرتضى ـ رسالة دكتوراه. فى جامعة القاهرة.

٤- الأدب:

لقد كانت المُثلُ العليا وأبطالها هى هدف الشعراء فى كل زمان، ولاختلافها فى كل عصر ومصر فقد اختلفت أغراض الشعر باختلاف الأزمنة والأمكنة.. وقد ظل الدين والفضائل التى ينشرها هى المثل العليا التى يتغنى بها الشعراء، وبقى الحكام والوجهاء الذين يمثلونها أو يحمونها سواء تخلقوا بها أم بعضها هم أبطال الشعر.. ومن ثمّة نشأ «الأدب الوصولى» أدب القصور الذى ينبض بمشاعر جلّها زائف وينطق عن أخيلة معظمها قريب أو تافه..

وأمّا من حيث الأسلوب فلم يسع الناظمون إلى ابتكار أو تجديد فى وزن أو قافية وإنما عكفوا على هيكل القصيدة لا يتخطّونه قيد أنملة وجمدوا على التعابير والمفردات والتشبيهات يرددونها بعد أن عاشوا طويلاً فى رحاب المعاجم وظلال الدواوين واستوعبت حافظتهم الكثير منها.. وبذلك زاد الشعر صنعة والنثر تكلفًا عمّا كانت عليه فى العصور الفائتة وبذلك دخله الحوشى والألفاظ العامية والأخيلة السقيمة والعبارات الركيكة.

وأدب القصور أو الأدب الوصولى يختلف ولاشك - عن غيره من ألوان الأدب فى طابعه ومعانيه كما اختلف فى واقعه وأغراضه. هو أدب ترف وتسلية قد يكون من دواعيه المنافسة والدعاية والمال والجاه وإشباع غرور الممدوح وأطماع المادح معًا.. وقد تكون هذه جميعًا.. فهو لهذا كان أكثر التزامًا بالأسلوب والزخرفة بالمحسنات البديعيّة، وأشد اهتمامًا بالألفاظ المنتقيات وتلوينها بالجناس والاستعارات، لأن تسلّى المترفين فى ندواتهم بالألفاظ وتمتعهم بجمال انسجامها وحسن تنسيقها لا يقل عن تلذذهم فى ندواتهم بشرب الراح وانتظام أدواته، وسماع الموسيقى وتنظيم آلاته.

وقد يكون لرأى الجاحظ فى البيان والتبيين: «إن المعانى فى السوق لمن يشاء أن يتناولها وإنما التفاضل فى تصويرها». وقد يكون لزعم عبد القاهرالجرجانى -

إمام النقّاد فى هذه الفترة: «أن التفاوت إنما هو فى نظم الكلام»[1]. حتى بدا الشعر فى هذا العصر وما تلاه من عصور.. صناعة فى اللفظ، وصياغة فى العبارة.. قد يكون لمذهب هذين فى النقد والأدب ما يبررهما من أثر لجمال الأسلوب فى النفس، غير أنه لايعدو أثر الأصباغ والمساحيق فى الصورة، وأنه قيّد العاطفة عن الانطلاق إلى عالم الإبداع فى المعانى والأخيلة البعيدة.

وقد يقال إن أدب المناسبات، وبخاصة شعر القصور، صائرٌ إلى الفناء عاجلاً أو آجلاً، لأنه لا يعبّرَ عن عواطف إنسانية مشتركة، غير أن هذا اللون من الشعر وإن خلق لهذا المصير كبعض الفنون والآداب إلاّ أنه لا يخلو من أخيلة شعرية ومعانٍ إنسانية ستبقى ما بقيت هذه على قيد الحياة، وسيتأثر بها الناس فى حياتهم اليومية مادامت أحاسيسهم بها.

ولهذا نستطيع القول بأن أدب القصور هذا لا يخلو من الفكرة السامية والخاطرة العالية والعبارة المشرقة والأسلوب الرقيق، ولشعرائه فى غير «الأدب ـ الوصولى» ـ جولات فنيّة حلّقوا بها فى أجواء خيالية واسعة فجاءوا بالمعنى الفريد والتعبير الجديد حتى ليخيل إليك وأنت تنشد لهم ـ وما أكثرهم وما أكثر ما قالوه فى هذا العصر ـ إنك فى أزهى عصور الشعر العربى، وهو خيال أقرب فى حقيقته إلى الواقع إذا تذكرت أبا العلاء المعرّى والأبيوردى والباخرزى.

هذا ما كان من أمر الشعر العربى، أما الفارسى فقد بلغ الذروة بعد أن مرّ بأدوار نمو وانتعاش تدريجية بدأت فى عهود الدويلات القومية الطاهرية والصفارية والسامانية ثم ازدهر فى عصر الغزنويين وبخاصة فى عهد «محمود» فكان من شعراء بلاطه العنصرى والمجدى والفرّخى ثم انضم إليهم الفردوسى صاحب الشاهنامة، حتى بلغ من تقدم الشعر أن صار ينظم ارتجالاً وأن يجد له سوقًا رائجة.. فليس غريبًا أن نجده ـ بعد مرور

(١) القزوينى ـ آثار البلاد ـ مادة طوس ٤ عند ترجمة الفردوسى.

تلك الأطوار ـ وما لابسه من ظروف سياسية زادت شعور الحاكمين رعاية للشعراء الحماسيين ،ما لامسه أثناءها من ثقافات مختلفة. . . ليس غريبًا أن نراه ـ بعد ذلك كله ـ أدبًا شائقا فى مادته بعيدًا فى أخيلته ساميا فى معانيه، إذ إنه كان ثمرة تلك الأطوار الثقافية وخلاصة تلك الثقافات المتنوعة.

والذى يلحظ فى هذه الحقبة من تاريخ الأدب فى الشرق الاعتزاز بالعربية وافتخار الأدباء من الفرس بحيث نظموا بها، حتى أبدع لهؤلاء لقب ـ ذوى اللسانين ـ واشتهر بذلك طائفة كبيرة منهم بحيث أطلق لقب ـ أمير اللسانين ـ على الأديب أحمد بن الحسين الداريج. وقد كان من ولع بعضهم بالعربية أن ترجم المنظوم الفارسى إليها، وحفظت لنا المجاميع المحفوظة والمطبوعه من هذا القبيل أمثلة كثيرة على الشعر الرائع فى معناه الدقيق فى نقله.

وكثر عدد المغرمين بالعربية من الفرس حتى قلّ أن نجد أديبًا فارسيًا لاينظم بالعربية حتى عقد «ابن فندق» فصلاً للشعراء ذو اللسانين فى كتابه «بيهق» وحدها فكان عددهم يربو على العشرين وكانوا يتفننّون في النظم باللغتين تفننًا يختلف باختلاف نزعات الشعراء الفنية، وكفايتهم اللغوية وقدرتهم على النظم. . فمنهم من نظم القصيدة فى بيت فارسى وآخر عربى، ومنهم من نظمها فى مصراع فارسى وآخر عربى ومنهم من جمع بين اللغتين فى الشطر الواحد فقال بعضهم مثلاً[1]:

يا أهل جلّين احفظوا آيتكم وذروا التبخّتر وانقلوا سر قينكم

وقال آخر:

زدى اندْرد لِمْ آتشى نكارا ولم ترحم فؤادا مستعارا

على أن هذه الظاهرة الأدبية لهذا العصر لم تكن خاصة بالفرس وحدهم،

(١) ابن فندق ـ تاريخ بيهق ص ٢٤٤.

وإنما شاركهم فيها العرب كذلك فشهدنا منهم من أجاد الفارسية وألّف بها ونظم، وعند الفريقين كان الطابع العربى بكل خصائصه ومميزاته هو الذى يتجلى فى الكتاب والديوان.

وكان لكل بلاط فى هذا العصر شعراوءه، ولكل نادٍ جلساؤه فإن لدار الخلافة شعراء معروفين يمتدحونهم ويُعلون من شأنهم فى المناسبات كما للسلاطين والخلفاء..

* * *